

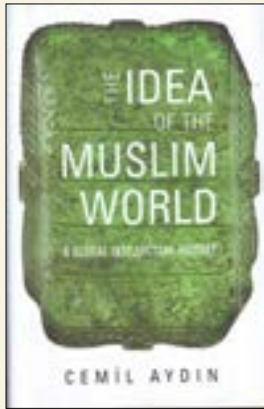
جميل أيدن «هوية دينية - سياسية» تحاصر مسلمي العالم

إعداد زياد هني

هويتان متخيلتان - يستند إلى خيال وليس إلى واقع. ويوضح عدم صحة الادعاء بأن الإسلام، منذ بداياته، كان صراعاً بينه وبين بقية العالم. فالمسلمون عاشوا قروناً في إمبراطوريات مختلفة جنباً إلى جنب مع غير المسلمين. والسلاط الإسلامية مثل العثمانيين والمغول والصفويين، انطلقوا من العلاقة العشرية لا من مفهوم الانتماء إلى هوية ووحدة سياسية جغرافية مقابل العدو غير المسلم.

كما يوضح الكاتب أن التضامن الإسلامي العابر لم يظهر عندما احتل نابليون مصر أو عندما احتل الفرنسيون الجزائر أو إبان الانتفاضة الهندية على الاحتلال البريطاني عام 1857. أما أول مظاهر فكرة العالم الإسلامي، فتظهر في سبعينيات القرن التاسع عشر وثمانينياته، بالعلاقة مع ربط أطراف المجتمعات الإسلامية عبر السفن البخارية والتلغراف والطباعة، وهي إحدى نتائج العالم الاستعماري.

للتذكير، عندما دعا الإمبراطور الألماني العالم المحمدي للثورة على الإنكليز، وقف مسلمو الهند ضد ذلك لأنه كان سيعرض وضعهم تحت الاستعمار البريطاني للخطر. تحت الاستعمار البريطاني للخطر. أخيراً، يذكر الكاتب بأن من أسباب ثبات هذا المصطلح السياسات الاستعمارية بدءاً من سايكس بيكو مروراً باغتصاب فلسطين والعنوان الثلاثي وهزيمة عام 1967 وغيرها من الأحداث المفصلية. أمور كثيرة يعالجها المؤلف ومنها «داعش»، وخلافته الكاريكاتورية التي يرى أن فكرها أقرب في استناده إلى قولبة الإسلاموفوبيا من النظام العباسي أو العثماني.



يلقي المؤلف اللوم على الاستعمار العنصري الذي صنف الإسلام ضمن أطر ثابتة

يشرح المؤلف أن الانتماء إلى الإسلام استحالة فكرة عنصرية. من الجوانب الأخرى التي يتعرض الكاتب إليها، أسباب عدم خبو الفكر العنصري عن الإسلام رغم انقضاء عصر الاستعمار، بل إنه ازداد قوة في الحرب الباردة. من الجوانب النظرية التي يعالجها الكاتب في هذا المؤلف الثمين، قيام المفكرين المسلمين في ثمانينيات القرن الماضي بربط مفهوم العالم الإسلامي بمفهوم الأمة العتيق، بهدف مواجهة الإمبريالية. يعارض المؤلف في جده مقولات مثل صراع الحضارات والإسلام ضد الغرب، ويوضح أن الصراع الأبدى بين عالم إسلامي مفترض وعالم مسيحي مفترض - وكلتاها

إن التشديد على أهمية الإسلام في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، في السياسة العالمية لا ينطلق من أسس دينية لاهوتية، وإنما من إرث الاستعمار العنصري الذي صنف الإسلام ضمن أطر ثابتة تنطلق من استراتيجيات ثقافية وسياسية هدفها عنصرة المجتمعات الإسلامية.

بالتالي، فإن فكرة العالم الإسلامي خداع لاتاريخي، تمكن جذورها في صعود الإمبريالية الغربية أواخر القرن التاسع عشر وموقفها العنصري تجاه الإسلام والمسلمين، حيث طرح المثقفون المسلمون فكرة العالم الإسلامي مقابل ذلك، وشدوا على مساهمة الإسلام في الحضارات الإنسانية.

انطلاقاً من هذه الحقائق التاريخية، دوماً بحسب الكاتب، فإن المسلمين الذين يتمسكون بفكرة العالم الإسلامي يتفوقون مع المعادين للإسلام (الإسلاموفوب) الذي يشددون بدورهم على موقفهم العنصري تجاه الدين والتباعد، أياً كانوا. ولنتذكر في هذا المقام مقولات مثل «الإسلام والغرب»، و«صراع الحضارات».

يوضح الكاتب أن التحول الراديكالي لمسلمي أوروبا وأميركا، منذ العصور الاستعمارية إلى يومنا، يستند إلى فرضية أن وحدة الإسلام الجيوسياسية ترتكز إلى هويته الدينية. لكن النزعة الراديكالية لدى المجتمعات غير الأوروبية اندلعت أيضاً لدى الآسيويين والأفارقة ومجتمعات كثيرة أخرى، أخذين في الاعتبار أن أواخر القرن التاسع عشر هو عصر الإمبراطوريات وفي الوقت نفسه عصر الحديث عن العنصر (race) والفكر العنصري.

التي يمكن فيها لهوية متخيلة أن تكون متجذرة إلى هذه الدرجة في حواضرنا؟

ما دوافع قيام سياسيين مسلمين وغير مسلمين، ومثقفين وشخصيات دينية من الطرفين يقيمون مناقشاتهم وقراراتهم على فكرة العالم الإسلامي من دون التفكير في هذا المصطلح بعمق في معناه ومدى دقته، ومن دون تأمل مغزى هذا التعميم؟

يوضح الكاتب أن هدف مؤلفه الرئيس هو توضيح جذور هذا المصطلح وفهم جاذبية الروايات المرتبطة به والتي يعيشها العالم الإسلامي في ظلها جنباً إلى جنب الغرب المسيحي.

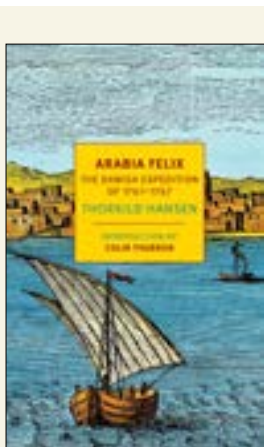
في مقلب آخر، يوضح الكاتب أن مقولة أو مصطلح العالم الإسلامي، الذي يبين أنه ولد في القرن الثامن عشر، يعني أن المسلمين - وانطلاقاً من كونهم متدينين ومن طبيعة دينهم - معارضون طبيعياً للنظام الليبرالي العالمي، وللدولة الوطنية. هذا يقود إلى الاستنتاج بأن موقف المسلمين من القضايا السياسية مختلف عن مثيله لدى البوذيين والهندوسيين والمسيحيين وغيرهم ولا يتم الحديث عنهم بعلاقاتهم بأديانهم. هذا يعني بالضرورة وجود استثناء إسلامي، وهو أمر غير صحيح. يقول الكاتب إن الإثبات أن الدولة العثمانية والجمهورية التركية ومسلمي الهند وأفغانستان والمملكة السعودية والباكستان ومصر الملكية وإيران الشاهنشاهية، دعموا النظام الإمبريالي الاستعماري والنظام القومي في ما بعد. ولا ننسى حقيقة أن جماعات الإسلام السياسي لا تحارب الغرب بل المسلمين!

ثوركلد هنزن وقائم الحملة الدانماركية إلى اليمن

التاريخية والسير الذاتية، ترمم بورتريه مجموعة ديناميكية لعلماء استكشاف - فلاسفة. الكاتب قدم لنا في هذا المؤلف صورة الحياة الثقافية للقرن الثامن عشر، إضافة إلى قصة مغامرة حقيقية حدثت في بلاد بعيدة مجهولة.

يروى المؤلف تفاصيل كثيرة عن تلك الرحلة، التي واجهت مشاكل حتى قبل انطلاقها حيث طرد عصفوان فيها من العاصمة الدانماركية أثارا عراكاً في المدينة، قبل أسبوع من انطلاق الرحلة. كما يروي المؤلف عراك أعضاء الحملة الذي أدى، ضمن أمور أخرى إلى تعطيلها مدة سنة في مصر بسبب ابتعاد فون هيفن كيساً من الزرنينخ ظن زملأؤه أنه يريد قتلهم به، وكذلك كسل أحد أعضائها الذي لم يستفد من زيارة دير القديسة كاترين في سيناء ومكتبتها، ما أدى إلى تأخر اكتشاف أقدم نسخة من العهد الجديد فيها قرناً من الزمان.

من الأمور الجديرة بالذكر هنا أن الكاتب لم يخلد فقط تفاصيل تلك الرحلة بأسلوب أدبي جميل وسلس، بل أوضح أيضاً قيمة الاكتشافات العلمية التي سجلها أعضاء الحملة قبل وفاتهم ومن ذلك مثلاً أن النقش الذي رسمه نيبور إبان زيارته إلى العاصمة الفارسية القديمة برسبوليس قاد إلى حل ألغاز الكتابة المسماة.



مزيج من اليوميات التاريخية والسير الذاتية

كلن ثبُرُن، رئيس الجمعية الملكية الأدبية، إنه فريد. ومن الجدير بالذكر أن الكاتب الدانماركي فضح في مؤلفاته العديدة انخراط بلاده في تجارة العبيد الغرب-هندية. المؤلف قصة مغامرة واستكشاف وتحمل وموت، ودراسة الطبيعة الإنسانية تحت ضغوط غابية في الصعوبة. بعض من كتبوا عن المؤلف، قالوا إنه مزيج من اليوميات

جدة ومنها إلى المخا. هدف الرحلة كان لاحقاً صنعاء ومنها إلى المخا ومن بعد إلى بومباي ثم إلى مسقط وبوشهر وشيراز وبيزنبوليس المعروفة حالياً باسم تحت جمشيد، مع التعرّيج على بابل وبغداد والموصل وحلب وقبرص وفلسطين وجبال طورس، ثم إلى إسطنبول لتحل أخيراً في الدانمارك.

هذه الحملة التي أطلقها ملك الدانمارك فريدريك الخامس جمعت عالم الطبيعة السويدي بيتر فورسكال وعالم اللغات الفيلولوجي فردريك كرستين فون هيفن وعالم الخرائط الألماني كارستن نيبور، والطبيب كرستين كارل كرم وأخيراً لارس برغر. ومن الجدير بالذكر أن الألماني نيبور الذي نشر ذكرياته عن الرحلة في مجلدات عدة طبعها على نفقته، انتهى الأمر به إلى العمل بواباً في أحد أقاليم البلاد.

الرحلة التي توفي أعضاؤها كلهم، عدا الألماني كارستن نيبور، تركت الكثير من الوثائق والرسوم والمراجع والأخبار عن تجربة فريدة عمل الكاتب ثوركلد هنزن (1927-1989) المتخصص في الأدب، على جمع كل ما يمت لها بصلة في هذا المؤلف الذي نشر للمرة الأولى، بترجمته الإنكليزية عام 1965، وأعيد نشره محدثاً هذا العام بأسلوب أدبي. يقول كاتب المقدمة

الرومانية قد انتهت بهزيمة منكرة راح ضحيتها. وفق ما يرد في كتب المؤرخين الإغريق والرومان - نحو عشرة آلاف جندي روماني، ولم يعد سوى فرد واحد من أفراد الحملة، كي يخبر سادته عن الهزيمة.

ربما يسأل سائل: ولم استكشاف اليمن الذي أثبت أنه عصي على كافة القوى التي حاولت الوصول إليه، وهزمت آخرين، وما سبب تسميته بالعربية السعيدة؟ بعض من كتب عن تلك الحملة أكد بانها أهدافها لم تكن استكشافية استعمارية. فالموقع الأول الذي اختير هدفاً للرحلة كان المحطة التجارية الدانماركية في ترنكبار في شبه القارة الهندية، وتقع اليوم في ولاية تاميل-نادو. لكن اهتمام الدانمارك بالمشرق كان أيضاً استعماري، حيث تم تأسيس «شركة شرق الهند الدانماركية» في عام 1616، على غرار ما فعلته بريطانيا من قبل، واحتفظت باسمها حتى عام 1850 عندما غيرت اسمها إلى «الشركة الآسيوية». وفي عام 1620، قام الأدميرال أف غنيد بتأسيس أول محطة تجارية للدانمارك في المنطقة، بالاتفاق مع حاكم المنطقة. محطة الرحلة الاستكشافية الأولى كانت مدينة الإسكندرية ثم السويس. وبعد زيارة قام بها عضو الحملة الألماني كارستن نيبور في تشرين الأول (أكتوبر) 1762 إلى جبل سيناء، انطلقت إلى

شهدت المرحلة الحديثة في أوروبا نشوء نمط جديد من النشاط الفكري تم عبر رحلات استكشافية قام بها إما أفراد أو جماعات إلى مختلف مناطق العالم على مدى عام، وتحديداً إلى المشرق. هدف تلك الرحلات، التي مؤلتها إما جمعيات علمية، أو عسكرية أو كنسية أو أثرياء، كان جمع ما أمكن من معلومات عن تلك المناطق بما يخدم من نادي بها.

«اليمن، الحملة الدانماركية 1761-1762» لثوركلد هنزن (ترجمه جيمس ماكفارلين إلى الإنكليزية عن الدانماركية - نيويورك ريفيو بوكس - 2017 - Arabi Felix: the danish expedition) يروي قصة الحملة الدانماركية التي انطلقت يوم الرابع من كانون الثاني (يناير) عام 1761 بدعوة من ملك البلاد كأحد مظاهر انتقالها إلى العصور الحديثة التي يمكن تلخيصها بكلمتي العلم والاهتمام بالأقاليم البعيدة وفي مقدمتها المشرق العربي، وطموحها أن تتبوأ مركزاً متقدماً بين الدول الاستعمارية في الغرب. ملك الدانمارك أراد لها أن تكون طليعية من منظور كونها أولى محاولات الغرب للوصول إلى جنوبي جزيرة العرب، الإقليم الذي عرفه الإغريق باسم «العربية السعيدة» وعرفه العرب باسم اليمن، أي السعيد. كانت المحاولة الأولى منذ حملة الإمبراطورية